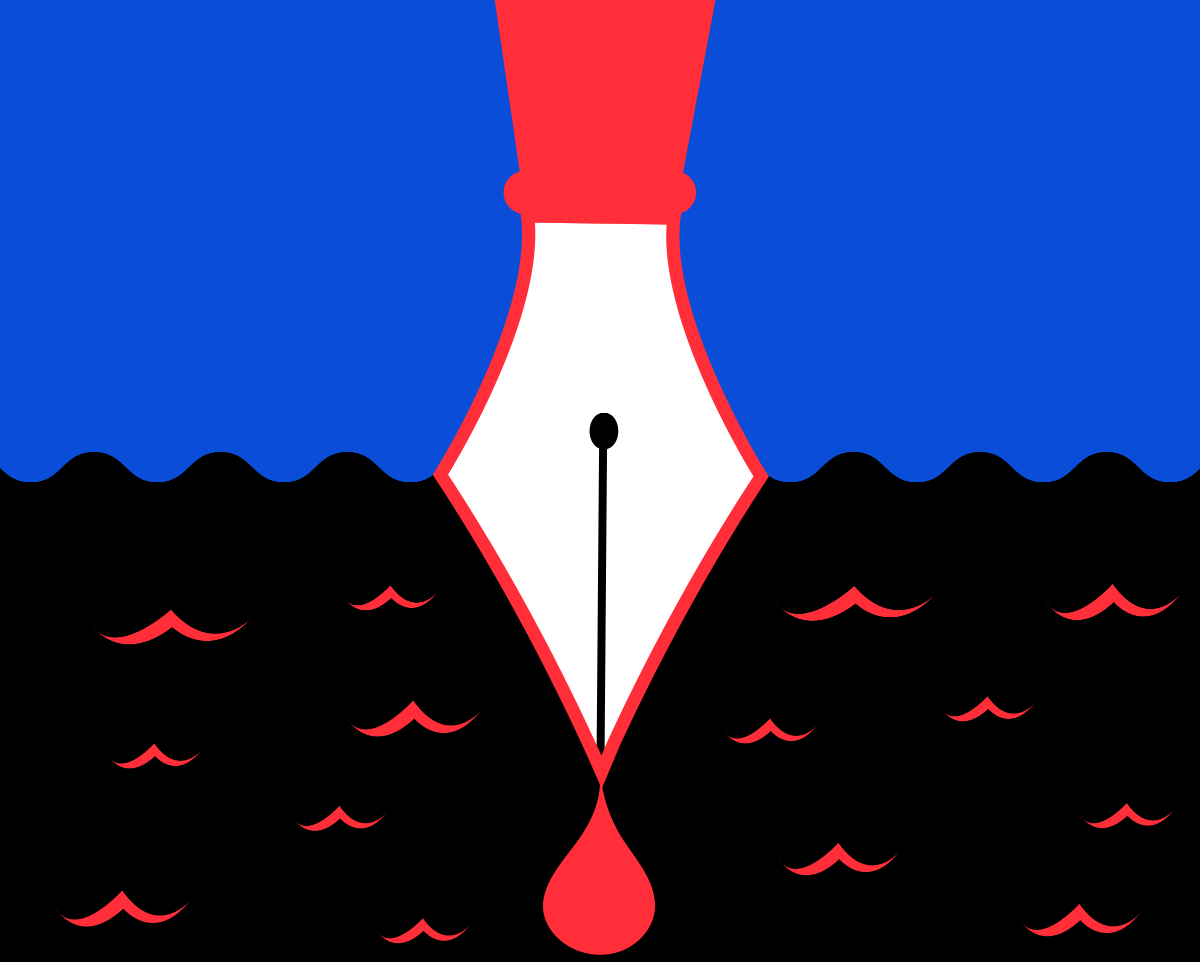

كيف ينهض العرب

عمر فاخوري

كيف ينهض العرب

تأليف
عمر فاخوري

هنداوي

كيف ينهض العرب

عمر فاخوري

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩ ١٩٨٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩١٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

كيف ينهض العرب	٧
الإهداء	٩
مقدمة	١١
١- شذرة تاريخية في أسباب نهضة العرب وسقوطهم	١٥
٢- الغاية الكماليَّة: ضرورتها للأفراد والجماعات	٢٧
٣- الثورات والثورة الفكرية	٣٣
٤- الثورة الفكرية والجنسية العربية	٣٩
٥- واجب مفكِّري العرب	٤٥

كيف ينهض العرب

لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانةً لهم، يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم، والمسيحيون الكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم، والبروتستانت على تعاليم «لوثر» الإصلاحية، وثَوْرِيُّو فرنسا في عهد «الرعب» على مبادئ «روسو» الديمقراطية، ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك.

ع. ف.

الإهداء

إليكم يا من أُحيي فيكم فجرًا جديدًا
أنتم الأُلى ستحبونني
إليكم يا رجال الأيام المستقبلة
بل أيتها الجيوش المقدسة![١]
أهدي هذه الرسالة.

المخلص
عمر فاخوري

١ الأبيات للشاعر الفرنسي تيودور دوبا نفيل.

مقدمة

الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأي، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر.

قاسم أمين

(١) الدواعي إلى تأليف الرسالة

كان للأمة العربية فيما مضى سلطانٌ عظيم، وحضارة ومنعة لم تُبقِ الأيام على شيءٍ منها إلا بعض آثار فخمة وأسفارٍ مهمة، ولا يُذكِّرنا بها إلا تاريخٌ مجيد، ليس من يعرفه فينا إلا القليل — شر خلف لخير سلف — فهو شاحبٌ هزيل يعلوه الغبار، مع أنه فياض بالمآثر الغرَّاء والفخر العميم.

ذلٌ رزحوا تحته ستة قرون، وجهلٌ أناخ عليهم بكلكله، وبلاد تزدردها الأغيار لقمةً سائغة، تونس والجزائر، مصر ومراكش، طرابلس والكويت، وغيرها على الأبواب.

أحزنني هذا المنظر، وآلَمَتْ قلبي هذه الفواجع، وأنا لم أزل أخطو الخطوة الأولى من هذه الحياة، فكدت أيأس من الشفاء وصلاح الحال، فإذا بي قد رجعت إلى نفسي في هذه المدة الأخيرة، فقلت: ليس الشعب العربي جثة هامدة، وليس يطلب منَّا إحياء العظام الرميمة، وإنما هي حركة فاترة، ونبضٌ ضعيف، أو بالأحرى مريضٌ يوشك أن يدخل في طَور النزاع والاحتضار، ويمكن إنقاذه من براثن الموت وفتكاته؛ إذا كانت الطرق فعَّالة والهمم عالية.

بدأ بعض البصيرين يفكر في الأمر، أسبابه ونتائجه، وكيفية تلافي شره، ويبث نظرياته في بني قومه، غير أن هذا البعض قليلٌ نادر.

لمحْت في الأفق الشاسع بصيص نور، واعتقدت أني أدركت شطرًا من الحقيقة، إن لم أكن حلبت أشطُرها، ووصلت إلى قسم من جواب ذلك السؤال العظيم الذي يجول في أدمغة أولئك المفكرين، وتتوقف عليه حياة أمة بأسرها، طيبة الأرومَة، كريمة الأصل، فعوَّلت أن ألقي دلوي بين الدلاء، رائدي الإخلاص وقول الحق.

آراء اقتبستها من كتبٍ غربية، لا أدعي عصمتها، وأفكار خاصة جرَّتني إليها المقارنة والمقابلة بين تلك وبين ما شاهدته، فالرسالة إذن جمع وتعريب أكثر منها وضع وتصنيف، أكتب لا واثقًا من الفوز وإقبال الناس، ولكني متأكد من أن الإنسان يستطيع إذا أبدى إحدى بنات فكره، النفع ببعض قرَّاء يطالعون ما كتبه بلذة وارتياح، ولا سعادة تعادل ما يشعر به من السعادة رجلٌ وجد من يشاركه في معتقده.

إن الأفكار بعيدةٌ جدًّا عن أن تتعمم بسرعةٍ زائدة، بل هي بالعكس بطيئة السير، وبمقدار بطئها تقاس درجة استحكامها في أدمغة البشر.

أكتب كل ما أكتبه وأنا متمثل بقول الشاعر:

إذا رَضِيَتْ عني كرام عشيرتي   فلا زال غضبانًا عليَّ لئامُها

(٢) الفكرة الرئيسية للرسالة

كيف ينهض العرب؟

هذا سؤال — ولا أنكره — يطرأ على بال كثيرين، وقد كنت ممن طرأ على بالهم.

أما الأجوبة فمنحصرة فيما يأتي: نوال اللامركزية الإدارية — لاحظوا أن البحث هو في الدرجة الأولى عن عرب الدولة العثمانية؛ لأنهم وحدهم الحافظون استقلالهم نوعًا ما — وتعميم العلم في طبقات الأمة كافة، والاطمئنان الخارجي، وهلم جرًّا. وكلٌّ يزعم أن الحق في جانبه بَيْدَ أني أرى أنه ليست هذه إلا سبلًا ضيقة، بعضها طويل وبعضها قصير، يجب أن تؤدي جميعها إلى ما يلزم أن يُكَّون غاية كمالية يشتدُّ وراءها كتَّاب العرب المصلحون، وكعبة إليها يحجون.

فما هي هذه الغاية الكمالية، أو المقصد الأسمى، أو المثل الأعلى، أو «الأيديال» المشترك كما يقول الفرنسيس: Idéal Commun? وهكذا انقلب السؤال الأول، كيف ينهض العرب؟ إلى هذا الثاني: ماذا يجب أن تكون الغاية الكمالية المشتركة لمفكري الأمة؟ يقينٌ أنه إذا أجبنا عليه أدركنا الضالة التي ننشدها منذ عهدٍ طويل.

فكرت طويلًا في هذا الشأن، فلم يُنِرِ الظلمة المحيطة بي إلا فقرة من كتاب للدكتور غوستاف لوبون نشره حديثًا، اسمه «الثورة الفرنسية وروح الثورات»، لم أتمالك إذ تلوتها عن أن أرتمي على هذا السِّفر الجليل أُقبله مثنى وثلاث، وإن صرخت بعد ذلك الانتظار الطويل بمثل ما نادى به «أرخميدس» في العصور القديمة، لمَّا اهتدى — صدفةً — إلى إحدى الحقائق العلمية: أريكا! ... أريكا! ... «وجدتها. وجدتها.»

وها أنا ذا أنقل إليكم تلك الفقرة بنصها الصريح:

> لم تكن قوة الثورة في المبادئ القديمة التي أرادت نشرها، ولا في الأوضاع التي زعمت أنها تؤسسها؛ لأن الشعوب قلَّما تهتم بالآراء والأوضاع؛ إذا كانت الثورة قوية جدًّا، وإذا جعلت فرنسا تنوء تحت أعباء فظائع وخراب ومذابح حرب داخلية شعواء، وإذا وقفت في وجه أوروبا بأسرها ظافرة، فذلك لأنها أسست ليس عهدًا جديدًا، بل ديانةً جديدة، والتاريخ يدلنا بأنه لا يمكن مقاومة معتقد كهذا راسخ، إن «روما» نفسها تلك التي لا تُقهر اضطُرت أن تولي البارحة أمام جيوش الرعاة الرُّحَّل، تنيرهم شريعة محمد ﷺ، وملوك أوروبا لم يَقدِروا لنفس السبب على مقاومة جنود «الكونفانسيون» ذوي الثياب البالية، إنهم كانوا مثل سائر المؤمنين مستعدين لتضحية ذواتهم في سبيل معتقداتهم.

كذلك لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانةً لهم، يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم، والمسيحيون الكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم، والبروتستانت على تعاليم «لوثر» الإصلاحية، وثوريُّو فرنسا في عهد «الرعب» على مبادئ «روسو» الديمقراطية، ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك.

هذه هي الفكرة الرئيسة للرسالة، أسير منها باسم العرب دون نظرٍ إلى معتقدهم الديني، داعيًا إياهم إلى اعتناق مذهب سياسي — وإنما المستقبل للمذاهب السياسية — ألا وهي العنصرية العربية.

وسأذكر في هذه الرسالة أسباب عظمة العرب في القديم وسقوطهم، وأدرس ضرورة الغاية الكمالية أو الخيالية للأفراد والجماعات، ثم أتناول البحث في الثورة الفكرية التي يجب إحداثها في الأمة لتكوين وحدةٍ لها في المشاعر والآراء والمعتقدات، وآتي إلى تقرير القيام بالجنسية، وبعد ذلك أتقدم إلى بيان الواجب المرتب على مفكري العرب عند سيرهم في هذا الطريق القويم.

وليس قصدي من كل هذا إلا النفع المحض الخالص من كل شائبةٍ شائنة، أرجو إذا أصبتُ كبد الحقيقة المساعدة، أو إذا أخطأت المرمى المناضلة بالبرهان؛ فإنه لا يقرع الحجة إلا الحجة، وليست القوة الاستبدادية إلا مدعاةً لانتشار الأفكار الجديدة التي ستكون يومًا من الأيام سيلًا جارفًا يقضي على من يعترضه، ويزعزع أسس الأبنية القديمة، أو نارًا شديدة الضرم يبلغ لسانها عَنان السماء، تأكل اليابس البالي من المعتقدات متى استحكمت في الأذهان ورسخت في العقول.

هذي عواطف لا تقاومها يدٌ ومُجَازِفٌ مَنْ عَارَضَ التَّيَّارا

إنا نروم أن نجعل العربية إيمانًا دينيًّا، يضحي كلٌّ منَّا في سبيله مصالحه وسعادته حتى حياته، يربط الأمة بوحدة أدبية تجعلهم كالبنيان المرصوص، وتنمي قواهم المادية؛ لأن مبدأ كهذا كان دائمًا طليعة لحضارة مقبلة، لا يغلبه إلا مبدأ أكثر منه رسوخًا وأعرق تأصُّلًا.

إذ ذاك نجدد مجد أجدادنا الدارس، ونحيي مفاخرهم الميتة، أو بالأحرى التي تكاد تموت، ولا نعود نسمع من يقرعنا ويندد بنا قائلًا — وإن قوله لحقٌّ صراح:

أَتَقْنَعُ بالعظام وأنت تدري بأن الكلب يقنع بالعظام؟!

الفصل الأول

شذرة تاريخية في أسباب نهضة العرب وسقوطهم

نأتي هنا على ذكر بعض الأسباب الخطيرة التي نهضت بالعرب في القرون الوسطى تلك النهضة المباركة، ثم نتقدم إلى سرد العوامل التي سببت تقلص سلطتهم ذلك التقلص السريع، وفائدة هذا في بحثنا تُدرَك للوهلة الأولى؛ فإن التاريخ ولو كان لا يعيد حوادث الماضي حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، فإنه لا يشك أحد بأن الأسس الكبرى لجميع حوادثه تظهر مُقادة بنواميس واحدة.

وضع العلَّامة الكبير الدكتور غوستاف لوبون مجلدًا ضخمًا في «حضارة العرب» Civilisation des arabes خصَّ فصلًا من فصوله بتقرير أسباب نهضتهم وانحطاطهم، ضمَّنه أحسن ما رأيت من الآراء الاجتماعية بهذا الشأن؛ ولذا نخص عنه أكثر مضامين هذه الشذرة.

(١) عوامل النهضة

> لا نستطيع أن نذكر في التاريخ شعبًا وصل إلى الدرجة التي أدركها العرب في تلك المدة الوجيزة؛ فقد أسسوا — من الوجهة الدينية — ديانة من أعظم الديانات السائدة على العالم، وشيَّدوا — من الوجهة السياسية — صروح إحدى الممالك الكبرى التي عرفها التاريخ، ومدَّنوا أوروبا من الوجهة الأخلاقية والعقلية.
>
> غوستاف لوبون

كان العامل الأول المؤهل لعظمة العرب الزمن الذي ظهروا فيه؛ ولهذا العامل قيمة كبرى للأفراد والجماعات، فإن كثيرًا من المزايا لا تنبثق إلا في وقتٍ ما، فنابليون لم يكن ليصل إلى تلك الدرجة العالية من المجد العسكري لو وُجد في عهد لويس الرابع عشر، ولو ظهر رجال العرب في زمن عظمة الرومانيين لظلُّوا يجهلهم التاريخ، جاء رجال العرب في الوقت الملائم؛ إذ كان العالم القديم متداعيًا للسقوط من جميع أطرافه، يكفي أن يلمسه أتباع النبي لمسًا خفيفًا ليصير خاويًا على عروشه.

غير أنه لا يكفي هدم مملكة لتأسيس حضارة، فالعجز الطويل الذي أظهره البرابرة وارثو الحضارة الرومانية في الغرب كما العربِ في الشرق يدلنا على صعوبة هذا العمل، أو بالأحرى استحالته، فالشرط الإعدادي الأول كان هكذا ميسِّرًا تكوين مملكة وحضارة جديدتين، بَيْدَ أنه يلزم لنجاح ذلك عوامل أخرى أساسية.

نذكر من هذه بادئ ذي بدء تأثير العِرْق الجنسي.

إن الذي يميز على الأخص قومًا عن قوم هو عدد من المشاعر والقابليات المشتركة الموجودة في أفراد هذا القوم يوجِّه قواهم نحو نقطةٍ واحدة، ومجموع هذه المشاعر المتماثلة الناشئة عن تجمعات وراثية بطيئة يمثل التراث الذي اشتغل كل من أجدادنا في إيجاده وتركه لخَلَفهم، والذي نعمل نحن على تركه لأبنائنا، ومع أن ذلك الخلق يتغير بحسب قابلية الشعوب، فقلَّما يختلف في شعبٍ واحد.

لا شك أن كل جيل يؤثر في العناصر الأساسية للخلق القومي، ولكن هذا التأثير خفيفٌ للغاية، حتى إنه يلزم مرور عصور عديدة؛ ليتمكن مجموع التغيرات الخفيفة من إحداث انقلابٍ محسوس، ويظهر أن التربية والبيئة والحوادث تُنشئُ بعض التغيرات السريعة، بلى، ولكنها وقتية لا تُعمر طويلًا.

وبالطبع، فإن الخصائص الأخلاقية والعقلية في قومٍ من الأقوام ثابتة تقريبًا ثبوت الخصائص الجسمية في الأنواع، ومعلوم أن هذه لا تتغير إلا بعد زمنٍ طويل، وبطؤها الشديد هذا قد حدا ببعض الطبيعيين إلى اعتبارها ثابتة لا تتغير.

ليس الذكاء بالمكون للخلق، وليس هو المحرك الأساسي للسيرة، بل الذي يُكوِّنه هو مجموع المشاعر المشتركة الذي ينبغي الابتداء به عند درس الدور الذي لعبته الأفراد والشعوب على مسرح التاريخ، إن حب الثورات وسهولة إشهار الحرب بلا موجب واليأس حين الفشل صفاتٌ أدركها «قيصر» في العصور القديمة عند أجداد الفرنسيس، وهي تشرح كثيرًا من حوادث ماضيهم.

من السهل البرهان بواسطة التاريخ على أن نتائج الخلق تتغير بحسب الظروف، وأن الْخِلال أو النقائص التي سببت في عهدٍ ما عظمة شعبٍ من الشعوب يمكن أن تسبب سقوط غيره، والعرب يقدِّمون لنا مثالًا على ذلك.

يمكننا بالبحث الدقيق أن نكشف مع اختلاف النتائج أسبابًا واحدة، يظهر مثلًا وجود هاويةٍ سحيقة بين يوناني عصر «بريكلس» وبين البيزانتي، غير أن روح الخلق لم تزل واحدة، أما الظروف التي يعمل بها فهي وحدها تغيرت، فإنه حين ظهوره في بيئة وزمن مختلفين عن ذي قبل صارت تلك الرقة في الكتابة، وذلك المعنى الفلسفي البعيد عند اليونان، إلى التنميق الباطل والجدل الديني والثرثرة عند البيزنطيين ورجال التفتيش في القرون الوسطى بإيمانهم المتَّقد وغرائزهم الثابتة على المحافظة الشديدة، يختلفون في الظاهر عن اليعقوبي العصري بإلحاده الهائل وفطرته الثورية، لكنَّ بُرْهَةَ تَدَبُّرٍ تَدُلُّنا بأن الثاني نسيب الأول يمتُّ إليه بحبل القرابة ولم يتغير فيهما إلا اسم المعتقد.

ونضيف إلى هذه العناصر الأساسية للخلق، الثابتة ثبوت الفقرات في الحيوانات الفقرية، عددًا من عوامل أخرى تتغير كما تتغير القامة وهيئة الجسم واللون في هذه الحيوانات، وهي التي تحملنا على القول بأن الأذواق والأفكار تتغير من عصرٍ إلى آخر، غير أن هذه التغيرات لا تؤثر في شيءٍ من عناصر الخلق الأساسية، ويمكن تشبيه هذه الأخيرة بالصخرة التي يضربها الموج على الدوام دون أن يهزها، والأولى بطبقات الرمل والأصداف والحشائش التي يضعها الموج على تلك الصخرة؛ ليستردها بعد قليل.

كان للعرب ذكاءٌ حاد، وحماسة شديدة، واستعدادٌ فني وأدبي لا يمكن نكرانه، وما كانوا لولاه ليصلوا إلى هذه الدرجة من الحضارة.

ومما يستحق الاهتمام أن السجايا الحربية كانت ملازمةً للعرب، بل لاصقةً بهم، بحيث إن الجزيرة لم تكن إلا ساحة حربٍ دائمة، يسفك فيها بعضهم دم بعض، فلما خضعوا لذلك المعتقد كانت السجايا الحربية السالفة الذكر من أهم أسباب نجاحهم، وهذا دليلٌ على ما قدمناه من أن الاستعداد الواحد ينتج نتائج مختلفة باختلاف الظروف، وأن نفس الغرائز التي تسبب النهضة تُحدث السقوط فيما بعد.

وقد كان للعرب نهضة مهيئة لتلكم النهضة الكبرى.

ولم تقتصر تلك النهضة على الأدب والشعر، بل شملت الدين؛ فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الأفكار واختلطت الاعتقادات، فلم يكن أهل الجاهلية يعرفون لمن يُصلُّون، ولا إلى من يتوسلون، فقد يذبح أحدهم للصنم ويدعو الله، وفيهم عبدة

الحجارة والنار وعبدة الأصنام، وفيهم الموحدون والمشركون، وغير ذلك من أنواع العبادات المتضاربة، وظهر في أثناء ذلك الاضطراب من حرَّم الخمر ورفض الأصنام، وأصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة، وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم، فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة، وهمَّ بعضهم بادعائها، مما يدل على تنبه الأذهان إلى أمر الدين والافتكار في عواقب الأعمال.[١]

وكانوا يقتنون بضعة عشر علمًا؛ كعلم النجوم والأنواء ومهاب الرياح والميتولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر، وكان اعتناؤهم بهذا الأخير أكثر من البقية، حتى إنهم نظموا في قرنٍ واحد أو قرنين ما لم يجتمع عند أمم العالم المتمدن في عدة قرون، وخصوصًا في العصر الجاهلي، فإلياذة «هوميروس» و«الأوديسية» هما معظم شعر الجاهلية اليونانية، ولا يزيد عدد أبياتهما على ٣٠٠٠٠ بيت، أما العرب فيؤخذ مما بَلَغَنا من أخبارهم عما نظموه في نهضتهم الأخيرة قبل الإسلام أنه يربو على أضعاف أضعاف ذلك، فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات، فقد ذكروا أن أبا تمَّام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار العرب ١٤٠٠٠ أرجوزة، غير القصائد والمقطعات (ذكره ابن خَلِّكَان جزء أول صحيفة ١٢١)، وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧٠٠٠ قصيدة، على كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة (في كتاب النجوم الزاهرة، صحيفة ٤٢٠)، وقال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير.

وزد على ذلك أن العرب نظَموا الشعر الكثير وأبدعوا فيه، وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان أو الهنود أو غيرهم على النَّظْم، وإنما اندفعوا إليه بفطرتهم، ولولا ذلك لتأخروا في النظم حتى قامت دولتهم ونضجت قرائحهم كما حدث للرومانيين، فإن الشعر لم ينظم بلسانهم إلا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون، ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي إلا في أيام «أغسطس» و«طيباريوس» نحو القرن الثامن من تأسيس «روما»، ثم أخذ في التقهقر، ويقال نحو ذلك في دول أوروبا الحالية، فإن الشعر لم ينضج عندهم إلا بعد نشأة دولتهم وتقدمهم في العلم والأدب.[٢]

[١] جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، جزء أول صحيفة ٣٣.

[٢] تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الثالث، صحيفة ٢٤.

كان الشعر فطريًّا في العرب يندر من لا يستطيعه حتى المجانين واللصوص، ناهيك بالنساء؛ فقد نبغ منهن جماعة كبيرة من الشواعر، ومن لم يستطع الشعر لم يَفُتْه الاجتماع في المجالس العمومية لسماعه أو مناشدته، وكثيرًا ما كانت النساء يعقدن المجالس لمناشدة الأشعار وذكر الشعراء ونقد أقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض، وكان أكثرهم ينظمون الشعر وهم أطفال لم ينظروا في الأدب والشعر، فمن شبَّ ولم تنفتق قريحته عدُّوا ذلك نقصًا فيه وعيبًا على أهله.

وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء أنهم عمدوا إلى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب وعلَّقوها في أستار الكعبة، وهي المعلقات؛ ولذلك يُقال لها المُذَهَّبات أيضًا كمُذَهبة امرئ القيس، ومُذَهبة زهير.[٣]

وبالجملة، فقد كان الشعر شائعًا في العرب ولم تخلُ قبيلة من شاعرٍ أو غير شاعر يحمي زمارها ويصف عواطفها، وكان الشعر عندهم مستودع الأخبار وخزانة الآداب والأخلاق؛ ولذلك قيل: الشعر ديوان العرب.

وعندي أن الغاية الكمالية هي في رأس عوامل نهضة الأمم؛ إذ إنها تجعل القوى متضامنة متحدة، فقد جمعت الغاية الكمالية التي تمَّت على يد محمد — عليه السلام — العربَ بوثاقٍ وثيق، وكانوا قبل ذلك قبائل مبعثرة يغير بعضهم على بعض، فهذه الضالة أو الغاية الكمالية كانت كافيةً لأن تبعث الحمية في نفوس أتباعها؛ بحيث إنه يهون عليهم الموت في سبيل نصرتها.

إن الغاية الكمالية هي من أعظم عوامل الارتقاء، دون نظرٍ إلى حقيقة هذه الغاية أو موضعها من الصحة، بل يكفي أن تكون قوَّتها عظيمة لتُحدث في الشعب عواطف مشتركة وآمالًا واحدة وإيمانًا متينًا واستماتة في سبيل تحقيق هذا الخيال.

كانت غاية الرومانيين الكمالية عظمة «روما»، وضالة المسيحيين الأمل باكتساب حياة سعيدة كلها لذة وانشراح، وللرجل في العصر الحاضر آلهة جديدة خيالية يُشيد لها التماثيل والمعابد، تؤثر في مجرى حياته تأثيرًا كبيرًا، والتاريخ ليس إلا سرد الوقائع التي قام بها البشر في متابعة الضالات أو المقاصد العليا التي لولاها لبقي الإنسان في الحالة الوحشية ولَمَا كان هناك حضارة، يبتدئُ الانحطاط في شعبٍ من الشعوب حين يفقد ضالته الخيالية المحترمة لدى جميع أفراده الذين يكونون مستعدين للذَّبِّ عن حِيَاضِها.

[٣] العقد الفريد، الجزء الثالث، صحيفة ٩٣.

كانت الغاية الكمالية التي قصد إليها محمد ﷺ دينية سياسية، والمملكة العربية تُقدِّم لنا الحادث الوحيد الذي كانت آخرته تأسيس مملكة باسم ديانة، وإصدار جميع الأوضاع السياسية والاجتماعية من هذه الديانة.

هل يكفي هذا العامل (الضالة أو الغاية الكمالية)؛ إذا قرنَّا إليه ما ذكرناه سالفًا لبيان عظمة العرب وشرح أسباب نهضتهم؟ كلا.

كان العالم القديم متداعيًا للسقوط أو بالأحرى متهدمًا، وكان هناك شعب مستحوذ على المزايا الحربية تضمه عروة المعتقدات المشتركة، وهو مستعد للانقضاض على ذلك العالم، بقي الاستيلاء عليه بَلْهَ حفظه بعد ذلك.

يرى المطَّلع على تاريخ العرب قبل الإسلام أنهم لَمَّا خرجوا المرات العديدة من الجزيرة ينوون الاستيلاء على البلاد الفارسية، أو تخضيد شوكة المملكة الرومانية، ورجعوا بالخيبة والفشل، ما كانوا ليقنطوا من النجاح بإعادة الكرَّة، وقد كانوا تعلَّموا من أعدائهم بعض الفنون الحربية كتعبئة الجيوش مثلًا وتنظيمها إلى أن أصبحوا معادلين لهم مماثلين من الوجهة الحربية، وحينئذٍ أصبح فوزهم مضمونًا، فكان كل جندي في الجيش العربي مستعدًّا لتضحية ذاته في سبيل نصرة الفكرة التي كان لأجلها يحارب ويناضل، بينما كان أعداؤهم عارين من كل إخلاصٍ وحماسة واستماتةٍ وإيمان.

كان يمكن أن تُعمي فتوحات العرب الأولى أبصارهم وبصائرهم، وتؤدي بهم إلى ذلك التهور الذي لم تنجُ منه أمة من الأمم بأن يعاملوا المغلوبين معاملةً سيئة، ويحملوهم قهرًا على اعتناق ديانتهم الجديدة التي كان جُل قصدهم نشرها في العالم، فلو ارتكبوا هذا الغلط لقامت الشعوب التي لم تخضع لهم تمامًا، تحمل لواء الثورة والعصيان، فالشطط الذي ركب متنه الصليبيون حين دخلوا سوريا بهذا الشأن ابتعد عنه العرب بدقة واعتناءٍ شديدين.

لقد أظهر العرب نبوغًا سياسيًّا يندر في غيرهم من معتنقي ديانة جديدة؛ إذ فهم الخلفاء الأولون أن الأوضاع والديانات لا تُلزم بالقسوة، والتاريخ يدلنا بأنهم حيثما دخلوا «مصر وسوريا وأسبانيا» كانوا يعاملون الأهالي برفق، تاركين لهم الخيار بالسير على الشرائع والمعتقدات التي يرغبونها ولا يطالبونهم مقابل محافظتهم عليهم إلا بجزية قليلة بالنسبة للضرائب التي كان يتقاضاها منهم الأسياد السالفون، والخلاصة أن التاريخ لم يرَ تساهلًا كتساهل العرب، ولم يشهد ديانةً كديانتهم في الرقة والتسامح.

إن هذا التسامح الذي تجاهله للآن أكثر المؤرخين أو سهوا عنه يشرح السهولة التي امتدت بها فتوحاتهم، وتعممت ديانتهم بتلك السرعة الفائقة وكذلك شرائعهم ولغتهم.

ومعلوم أن هذه الأخيرة ظلَّت تحفظها الشعوب التي تلقتها قبلًا بصدرٍ رحب حفظًا راسخًا قاوم جميع الغارات فثبتت حتى بعد انسحاب العرب من مسرح التاريخ، ويظهر هذا الحادث بوضوحٍ باهر في مصر؛ فإن الفرس واليونان والرومان الذين حكموها لم يقدروا على هدم حضارة الفراعنة أبدًا ليحلوا محلها حضارتهم.

إن أسبابًا أخرى عدا التسامح والرقة أكدت نجاح الغاية الكمالية العربية، ومهَّدت العقبات للأوضاع والنظامات الصادرة عنها، هي أن هذه النظامات بسيطة جدًّا تتفق بسهولة زائدة مع احتياجات الطبقات الوسطى من الشعوب الخاضعة؛ أي سوادها الأعظم، ولما لم تكن موافقة تمامًا لتلك الحاجيات كان العرب يعرفون كيف يبدلونها بأحسن منها تبعًا لضرورة الحال، وهكذا كانت الأوضاع الإسلامية في الهند والفرس وجزيرة العرب وإفريقيا البربرية ومصر تقدم لنا — مع أنها صادرة عن قرآنٍ واحد — فروقًا عظيمة، وصلنا هنا إلى الحين الذي افتتح العرب فيه العالم، غير أن مشروعنا لم ينتهِ بعد؛ إذ ليس طور الفتوحات إلا قسمًا من تاريخ اتباع النبي الكريم، فإنهم بعد أن حكموا العالم وشيدوا صروح حضارة عظيمة لا تقوى العوامل المتقدمة على بسطها وتأويلها دخل حينئذ عاملان جديدان.

كانت هذه الحضارة ناشئة عن سببين: البيئة الجديدة التي وُجدت فيها العرب، وقابليات ذكائهم الفطري.

أما البيئة فمعروفة؛ فإن العرب لَمَّا خرجوا من صحرائهم شاهدوا أنفسهم بجانب تحفٍ مدهشة وطرف تبهر الأنظار، تلك هي الحضارة اليونانية الرومانية، فأدركوا أفضلية أعدائهم الأدبية كما أدركوا أفضليتهم الحربية فاجتهدوا ببلوغ مستواهم.

غير أنه يلزم لتمثيل العرب حضارةً راقية أن يكونوا حائزين روحًا عالية، ومساعي البرابرة التي ذهبت عبثًا في محاولتهم اكتساب الحضارة اللاتينية تُظهر صعوبة هذا العمل الكبير، بيد أن العرب لحسن الحظ لم يكونوا برابرة، نحن نجهل ما كان من حضارتهم قبل النبي — عليه السلام، حين كانوا ذوي علاقة تجارية مع المحيطين بهم والمجاورين لهم، ولكنَّا نعلم أنه لما ظهر — عليه السلام — كانوا حائزين على درجةٍ من الرقي الأدبي عالية، بأن كانوا مؤهلين لتعلم ما يريدون اكتسابه، لم يأت العرب عند درسهم الحضارة التي رأوا أنفسهم بغتةً في وسطها بشيءٍ من تلك التقاليد التي كان البيزنطيون يئنُّون تحت عبئها، فهذه الحرية الفكرية كانت من أسباب توسعهم في العمران والمدنية، والغالب

في حياة الشعوب أن يخضع البشر لنِير التقاليد القديمة، ويحول بينهم وبين كل ترقٍّ تجددي لسلطان الماضي، بعد أن لعب دورًا مهمًّا نافعًا.

إن نزعة العرب الفطرية وخيالهم الغريزي وروحهم الأدبية والابتكارية ظهرت بعد قليلٍ في آثارهم الجديدة حتى إنهم أثَّروا في وقتٍ قليل في البناء والفنون والعلوم، ووضعوا عليها ذلك الطابع الخاص الذي يُعرفنا بنظرةٍ واحدة أنها صنع أيديهم وثمرات أفكارهم، حتى إن الفلسفة اليونانية التي لم تكن لتتفق مع روحهم ومزاجهم لم يقربوها أبدًا.

هذه هي أسباب النهضة العربية:

فانظر إلى الأجداد كيف سعوا ... للمكرمات وآيةً سلكوا
هلَّا أخذت بهديهم فهمُ ... تركوا العلى لك فَارْعَ ما تركوا
واطلب مداهم إنهم نفرٌ ... عاشوا بذكرهم وقد هلكوا

(٢) عوامل السقوط

قلَّ من جاوز من الشعوب مستوى العرب، لكنه قلَّ كذلك من نزل في الانحطاط إلى درجتهم.

غوستاف لوبون

يمكن إيراد أغلب العوامل التي ذكرناها عن نهضة العرب في شرح سقوطهم، ويكفي الإتيان على ذكر ذلك العامل الخطير وهو الوقت المناسب لنرى أطيب الخلال وأنفعها تُحدث نتائج سيئة مشئومة، وهذه الحالة مشاهَدة في الأفراد كما في الشعوب، فإن استعداد الذكاء وقابليات الخلق التي تسبب النجاح المؤكد في وقتٍ ما تكون السبب في الفشل وحبوط المسعى في زمنٍ آخر، وقد بيَّنَّا سابقًا أن السجايا الحربية التي كانت من قبل سببًا في خذلانهم؛ إذ كانوا يستعملونها في مناوشة بعضهم بعضًا، أصبحت نافعةً لهم لَمَّا وحَّد محمد ﷺ قواهم، كذلك نفس هذه السجايا الحربية التي أفادتهم في عصر فتوحاتهم صارت وبالًا عليهم حتى انتهت هذه الفتوحات، فإن عادات التخاذل والتحزب الموروثة فيهم أنتجت — لما رجع السلطان إليها — تقسيم المملكة، فكانت سبب سقوطهم، وإن منازعاتهم الداخلية هي التي أدت — في الحقيقة — إلى ضياع أسبانيا وصقلية من أيديهم. ولم يتمكن الأغيار من طردهم إلا حين شُغلوا بمنافساتهم العدائية الدائمة.

وكذلك أوضاع العرب السياسية والاجتماعية التي ذكرناها كعوامل للنهضة أصبحت بين عوامل الانحطاط.

لم ينجح العرب في تملك العالم إلا يوم تمكنوا بواسطة ديانة محمد ﷺ من الخضوع لشريعة ثابتة، وهي وحدها تقدر على لمِّ شعث القوى المتبعثرة في جزيرة العرب، فوثاق هذه الشريعة المحكم ظل حسنًا موافقًا، ما دامت أوضاع النبي ذات علاقة مكيفة مع حاجيات الأمة العربية، فلما أصبحت تبعًا لترقيات الحضارة محتاجة لأن تتغير كان نير التقاليد الموروثة ثقيلًا جدًّا لا يتمكنون من خلعه والتملص من ربقته، وأوضاع القرآن التي كانت مظهرًا لاحتياجات العرب في عهد النبي الكريم أصبحت خلاف ذلك بعد عدة قرون، وبما أن هذا الكتاب كان شريعة دينية ومدنية وسياسية معًا، يجعله منبعه الإلهي ثابتًا لا يتغير، أصبح مستحيلًا قلب الأساسات التي بُنِيَ عليها، وقد ظهرت نتائج المغايرة لما تسرب الوهن إلى سلطان العرب، فقامت تلك الانقلابات والمعاكسات الدينية بحجة تجديد المذهب الإسلامي، فكانت ترمي إلى إرجاع المسلمين إلى القرآن حرفًا بحرف دون أن يتعدى أحد هذه الدائرة الضيقة، بينما كان العرب في عصور بغداد وقرطبة الذهبية يعرفون كيف يحدثون على النصوص التبديلات التي تستوجبها الحاجات والظروف، وعلى الأخص الشعوب التي تود اعتناقها والسير بموجبها، وأن ضرر عدم التغيير زمنًا مديدًا قد ظهر في أوضاع العرب السياسية، فهذه الأوضاع التي كانت تجعل في يد رجل واحد كل القوى الحربية والدينية والمدنية، هي وحدها تكفل لنا تأسيس مملكة عظيمة، ولكنها كانت مع ذلك الأقل استعدادًا لتحقيق دوامها.

إن لتلك الحكومات المطلقة الكبرى التي تنحصر جميع سلطاتها في فردٍ فذٍّ من أفرادها سلطانًا كبيرًا لا يُقاوم في زمن الفتوح، غير أنه لا ينجح إلا بشرط أن يكون في رأسها على الدوام نوابغ ورجال عظام، واليوم الذي ينعدم فيه هؤلاء يصبح كل ما بُنِيَ وشُيِّدَ خرابًا يبابًا.

كان تجزؤ المملكة أول نتائج نظام العرب السياسي، فعمَّال الخلفاء الذين كانوا مثلهم تجسمت فيهم كل القوى الحربية والدينية والمدنية المتعلقة بولايتهم، توصلوا بعد زمن قليل إلى محاولة الاستقلال بالحكم، ولما لم يكن يوازي سلطتهم سلطة أخرى مماثلة لها صار من السهل إعلان سيادتهم المطلقة على البلاد، فحثَّ نجاح بعضهم همم الآخرين، ودفعهم إلى مجاراتهم واحتذاء مثالهم، وهكذا صارت أهم ولايات المملكة ممالك مستقلة تمام الاستقلال.

كان لهذا التجزؤ نتائج نافعة وضارة؛ ضارة لأنها أضعفت سلطان العرب الحربي، ونافعة لأنها كانت تسهل ترقيات الحضارة، ومصر وأسبانيا ما كانتا لتصلا إلى تلك الدرجة العالية لو بقيتا متعلقتين بالمركز، ولو أدارها حكام أو ولاة يتغيرون من حين إلى آخر، لا همَّ لهم إلا الثراء، دون البلاد، لأصبحتا في ذلك العهد تحكيان ولايات الدولة العثمانية اليوم، لقد كان تمدن بعض هذه الممالك الصغيرة المستقلة عظيمًا جدًّا، ولكنه سرعان ما صارت جميعها إلى ما صارت إليه غيرها من الممالك القديمة؛ حيث القدرة الحربية بدلًا من أن تكون مؤسسة على مُعَدَّات مهمة، كانت مؤسسة على عدد المحاربين وقيمتهم العسكرية تودي بهم هجمة واحدة، إن المدنية ترقق العادات وتربي الفكر، لكنها لا توسِّع الغرائز الحربية ولا تنميها، فتهيئ سقوط الممالك — لابن خلدون في مقدمته بحث ضافٍ جليل في هذا الموضوع — والشعوب التي تملك سعة ويسارًا تجد نفسها على الدوام مهددة من الذي أمسك العسر وضيق ذات اليد بخناقها، حين ترمي إلى استبدال ما هو أحسن من حالتها بها، على هذه الصورة انقرضت أغلب الحضارات الكبرى، كذا كان مصير الرومانيين، وكذا كان مصير العرب، إن الفاتحين المتعددين من أتراك ومغول اكتسحوا بلاد هؤلاء الذين استبحر عمرانهم ونمت حضارتهم، ولو هاجموهم حين كان أتباع النبي شارعين بتأسيس مملكتهم، وهم حينئذ شعب جافٍ اعتاد على التعب وشظف العيش ولمَّا يفسده الترف، لفشلوا كل الفشل.

ينبغي أن نذكر بين أسباب سقوط العرب تعدد الأقوام الخاضعة لحكمهم، وتأثير هذا العامل في الانحطاط يظهر بطريقين مختلفين، وكلاهما مشئوم؛ فإن وجود الأقوام الكثيرة يجعل الاحتكاك من جهة شديدًا والانشقاقات عنيفة، ومن جهة أخرى يسبب التزاوج الذي يفسد سريعًا دم الغالبين.

فالخليط من الشعوب المتعددة في مملكة واحدة كان على الدوام سببًا في الانحطاط العاجل، والتاريخ يدل بأنه لا يمكن المحافظة على حكم أقوام عديدة إلا باتباع شرطين أساسيين؛ الأول: أن يكون سلطان الفاتح عظيمًا يعلم الجميع أن مقاومته من العبثيات، والثاني: ألا يتزاوج الفاتح وتلك الشعوب المغلوبة على أمرها فيذوب فيها، ويندغم بها.

أما الشرط الأول فلم يتبعه العرب أبدًا، والرومان أنفسهم الذين لم يتبعوه دائمًا سقطوا إذ نبذوه تمامًا، وقد كانت السهولة التي عامل بها أسياد العالم القديم المغلوبين، ومنحهم البرابرة الدخلاء كل حقوق الوطني، من أهم الأسباب التي أنتجت سقوط العالم الروماني، بذا أصبحت «روما» مأهولة بالشعوب العديدة، فلم يعد يحكمها الرومان، وقد

خمدت فيهم المشاعر التي عملت على عظمتهم من قبل، كان الوطني الروماني لا يتردد في سفك دمه لأجل «روما»؛ لأن عظمة «روما» كانت إلهًا يعبده ذا سلطان عليه شديد، ولكن ما هو تأثير هذه الغاية العليا على نفس بربري؟

إن جعْل الشعوب المتنوعة الحائزة على عواطف مختلفة تخضع لشريعة واحدة مشروعٌ باطلٌ عقيم لا يمكن أن يكون إلا بمعاملة قاسية، وحكم الإنجليز الهنود الآن برهان على ذلك ظاهر، وكذلك معاملتهم للأرلنديين سالفًا.

لم يستعمل العرب هذه الواسطة في حكم الشعوب الخاضعة لهم؛ لأن الشريعة والأوضاع التي جاءوا بها قُبِلت بطيبة خاطر؛ ولأن كل الذين اعتنقوها ودخلوا في الإسلام عوملوا بالمساواة المطلقة، بهذا تأمر شريعة القرآن، ولم يكن ليرغب العرب الفاتحون في التملص من شريعة القرآن، وهكذا كوَّن الغالبون والمغلوبون شعبًا واحدًا ذا معتقدات ومشاعر ومصالح مشتركة، وما دام سلطان العرب محترمًا في كل مكان، مرهوبًا في كل حين، ظلَّ التضامن بين كل أجزاء المملكة العربية وثيق العُرَى.

بَيْدَ أنه إذا كانت منافسات هذه الأقوام خامدة، فإن جزوتها لَمَّا تنطفئْ، ظهر ذلك حين عاد العرب إلى عاداتهم الموروثة الأولى؛ إذ صارت البلاد الإسلامية مسرحًا تتطاحن فيه الأحزاب، حتى إنه بينما كان المسيحيون يحاصرون آخر مأوى للمسلمين في الأندلس كان اشتباك هذه الأحزاب بالغًا أشده، وتناحُرهم في أقصى درجاته، إن وجود الأقوام المختلفة في البلاد الخاضعة للدين الإسلامي سبَّب تلك المفسدة التي ذكرناها، وهي امتزاج العرب بأولئك الأقوام، ولو كان ذلك بشعوب ليست أحط منهم كثيرًا، كمسيحيِّي أسبانيا مثلًا، لكسبوا بعض المزايا، أما باختلاطهم ببعض الشعوب الآسيوية والبرابرة، فقد خسروا شيئًا كثيرًا، وفي كلتا الحالتين لا بدَّ أن ينتهي التزاوج بهدم الخصائص والسجايا التي ينظم مجموعها عِرْقهم الجنسي، والواقع أنه لما خسفت شمس سلطتهم السياسية تمامًا بضياع الأندلس ومصر لم يكن في البلاد الخاضعة لهم إلا القليل من الأعراب.

ولو ضربنا صفحًا عن الغارات والأسباب العديدة التي آلت إلى سقوط العرب، لكان اختلاطهم بغيرهم من الأقوام كافيًا لإحداث هذا السقوط، ومثل ذلك مراكش؛ فإن الغارات الأجنبية لم تؤثر عليها، ومع أنها كانت في مستوى من العمران تحسدها عليه الأندلس وقعت الآن في درجة النصف من البربرية، فإن التزاوج مع العنصر الزنجي أسقط كثيرًا من حضارة أهلها وأباد غضراءهم، حتى ادَّعى البعض أن المستقبل فيها للخلاسيين، وأن العصبية المراكشية الأصلية ستقع مع توالي الزمن في زوايا النسيان.

الفصل الثاني

الغاية الكماليَّة: ضرورتها للأفراد والجماعات

ليس التاريخ إلا سرد الوقائع التي قام بها البشر في متابعتهم غايتهم الكمالية.

غوستاف لوبون

(١) ضرورتها للأفراد

تقول إحدى كتابات الهنود المقدسة:

> إن «الإنسان تبعٌ للفكرة» وإنه «كما يفتكر الرجل يكون»، أو بالأحرى «هو مركب من اعتقاداته، فكما تكون يكون.»

إن هذه الآراء هي باتفاق تام مع علم النفس الحديث الذي يثبت أن الأفكار هي الأساس الراسخ للأعمال، وفي «الثالوث» النفسي أن الإرادة تدفع، والفكر يقود، والسعي يتمم، وما العمل إلا مظهر الفكرة.

فمصير الرجل من الرجال والأمة من الأمم يتوقف على الأفكار السائدة. فالمصور الذي يتناول قلمه وقلبه طافح بمنظر الجمال فيبرز لعالم الوجود عملًا متقنًا يبهر الأنظار ويستأسر الألباب، يشبه فرنسا إذ ثملت بخمرة الحرية وفكرة الاستقلال، فألقت بنفسها على أوروبا لتحطم قيودها، على هذا النمط تتقدم الفكرة العمل؛ فالفكرة إذن مبدعة، والعمل مستحدث تابع.

بيد أنه يوجد مع كل ذلك فرق عظيم بين الغايات المتنوعة والمبادئ العديدة؛ فمنها المظلمة المبهمة والمترددة الباطلة التي لا تترك أثرًا ثابتًا في الأخلاق، ومنها الراسخة القويمة التي تدع فيها أثرًا لا يزول أبدًا.

إن الفكرة الثابتة أو الغاية الكمالية — كما يعرِّفُها علماء النفس — هي التي تستحكم في مخيلة شخص من الأشخاص، فيتشبث بها رغمًا عن الوساوس والمماحكات، أو بالأحرى عن كل تلك القوى الخارجية التي تقذف غالبًا بالإنسان في هاوية لا قرار لها، وترمي بضعاف الأحلام في وهْدة لا مناص منها.

إذا كانت هذه الفكرة حسنةً جميلةً، أو كان هذا المبدأ موافقًا للنظامات الطبيعية، قادت صاحبها إلى ذِرْوة الفضائل، وأما إذا كانت باطلة تافهة، أو كان مبدؤها مغايرًا لنواميس الوجود، أخذت بيد رجلها المنكود فألقته في دركات الجنون المطبق والتعصب الأعمى.

ومن فاتته الغاية الكمالية كان كريشة في مهب الريح، اتفقت عليها عواصف الأحوال وزوابع الأهواء فأضحت تسير خاضعة للفواعل الطبيعية، لا وجهة يقصدها ولا ضالة ينشدها، أما من بنى لنفسه مبدأً عاليًا خاصًّا به فاتبعه وجعله كعبة يحج إليها، فإنه يتقدم سائرًا إلى الأمام دون أن يرتد على أعقابه، وإن رجع خطوة أو خطوتين كان ذلك استعدادًا لوثبة هائلة تحني ظهر العوائق والعقبات، فهو بمثابة المركب الذي يطيع الدفة في سيره فوق الأمواج المتلاطمة، في بحرٍ يعبُّ عبابه.

إن أهم أمر في تربية النشء هو أن نضع أمام عينيه مبدأً متين العُرى، قوي الدعائم، فاضلًا ساميًا، مستخلصًا من حياة أعاظم الرجال وشهيرات النساء؛ ليكونوا قدوة ينسج على منوالها، ومثالًا يتبعه في مآثرهم وفضائلهم وجلائل أعمالهم؛ لأن خيال الولد المتَّقد وذكاءه الفطري يبعثان الحياة في هذه الصورة العظيمة التي تقع تحت أنظاره، فيقتطف منها مبدأً ثابتًا، فإن طمحت نفسه لمنصة الحكم، أو صَبَتْ ميوله إلى التجارة، أو سمت رغبته إلى الفنون الرفيعة، أو أراد أن يكون وطنيًّا صادقًا صالحًا، وجد ذلك المبدأ طِبْقَ رغائبه ومطالبه وميوله وآماله.

إن الكتب والجرائد، والقصص والروايات، والصور والنقوش، هي التي تنتج لنا رجالًا إما أخيارًا أطايب، وإما أشرارًا مرذولين، فكما أنها تقدر أن تسمو بالناس إلى شريف المبادئ ونبيل المقاصد والغايات الكمالية، كذلك يمكنها أن تَحُطَّهم إلى الأفكار الفاسدة والآراء السخيفة لا سيما الطلاب؛ فإنهم أكثر انطباعًا من غيرهم، وأشد انفعالًا

وأقرب منالًا من الطبقات الأخرى، فالكاتب الذي يقدم للشعب أفكارًا شريفة مستقيمة ترنُّ على أوتار الإخلاص والتفاني والحماسة، يساعد في تشكيل أمة عظيمة هادئة، ساكنة مطمئنة سعيدة، وأما من يقدم لها ثمالة الكأس من الأفكار الدنيئة السافلة والمزخرفة الخلابة والفارغة الهوجاء، فهو أكبر عون على إسقاط تلك الأمة.[١]

والخلاصة أن الغايات الكمالية هي المُسَيِّرة للأفراد؛ فالذين يسعون وراء تسميم هذا الينبوع الصافي العذب، ألا وهي الفكرة الحسنة والمبدأ القويم، هم أعداء الإنسانية وعبءٌ ثقيلٌ على عاتقها يُقَوِّض أركانها ويهدم بنيانها ويقودها إلى الخراب.

وليس لأفراد الأمة العربية من غاية كمالية أسمى وأعلى من النهضة بالعرب، وإعادة مجد العرب!

(٢) ضرورتها للجماعات

ليس التاريخ إلا سرد الوقائع التي قام بها البشر منذ أقدم الأزمنة في متابعة الغايات الكمالية، أو هو بالأحرى معتقد يموت وآخر ينبثق، ضالةٌ تضمحل وأخرى تدب فيها الحياة، وما من كتاب عن الحضارات الكبرى كاليونانية والرومانية والعربية إلا وذَكَر هذا العامل في رأس العوامل، فإن الإيمان المشترك بين أفراد الأمة من الأمم يهبها قوة هائلة، حتى إذا كان إيمانًا وقتيًّا، فقد شهدنا الفرنسيس في عهد الثورة، وقد احتدم في صدورهم اعتقادهم العام بالديمقراطية الشريفة، يقفون في وجه أوروبا بأسرها ظافرين منتصرين.

«لا تخرج الأمم من الهمجية إلا حينما يكون لها مقصد سامٍ أو غاية كمالية تشخص إليها، وذلك لا يتم إلا بعد مجهودات طويلة ومغالبات متجددة، وسواء كان هذا المقصد العام ألوهية «روما»، أو تعظيم «أثينا»، أو نصرة الله، فهو يكفي لتوحيد أفكار الأمة، وهي في دور التكوين.»

قال الدكتور غوستاف لوبون:

> أدركَتِ الأمم فائدة المعتقدات العامة، وفطنت إلى أن يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها (هذا خطأ محض؛ فإن الجماعات — والأمم الخاضعة لمعتقدات عامة

---

[١] السيدة آني بيزان، مقال في جريدة «الماتين» الفرنسية.

هي كذلك جماعات — لا تدرك ولا تفطن أبدًا، كما يقرُّ به العلَّامة في جميع مؤلفاته، بل تسير منقادة للشعور أو العاطفة، تخضع لهما قهرًا دون أن تعلم فائدة اجتماعها على هذه المعتقدات، أو ضرر هجرانها إياها، ولعله خطأ من حضرة المترجم) فعبد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين، فسادوا على الدنيا أجمع، فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما واستمر البرابرة الذين ضربوا ملكها على همجيتهم، حتى إذا رسخت فيهم بعض المعتقدات العامة وُجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى.

وعليه تُعْذَرُ الأمم في دفاعها المستميت عن معتقداتها؛ لأن هذا التعصب هو في الحقيقة أرقى الفضائل في حياة الأمم، وإن كان مذمومًا من الوجهة الفلسفية.

ما أحرق أهل القرون الوسطى الألوف من الناس إلا للذَّبِّ عن معتقد عام، أو لِبَثِّ معتقدٍ عام جديد في النفوس، وما مات الكثير من المخترعين والمبدعين، والأسى ملء قلوبهم، إلا لأنهم لم ينالوا قسطًا من العذاب لأجل تلك المعتقدات، وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة إلا للدفاع عنها، وما ماتت الملايين في ساحة الوغى إلا بسببها، وكذلك يكون في مستقبل الأيام.

إن من الصعب غرس معتقد جديد، لكنه إذا تمكن من النفوس يظل شديد التأثير زمنًا طويلًا، وكيفما كان خطأ من الوجهة الفلسفية فإنه يتسلط على أكبر ذوي الألباب، ومتى تمكنت عقيدة جديدة من مخيلة الأمة أصبحت مصدر نظاماتها وجميع فنونها، وقاعدة سيرها، بل حجر الزاوية لكل أعمالها، هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها، فترى أهل العزائم لا يفكرون إلا في تحقيقها، وواضعي القوانين إلا في الأخذ بها، والفلاسفة وأرباب الفنون والكتَّاب إلا في تمثيلها على صور شتَّى.[٢]

للاعتقاد قوة لا يغلبها إلا قوة اعتقاد مثلها، فليس للإيمان عدوٌّ إلا الإيمان، والنصر حليفه متى كانت القوة المادية التي تعترضه خادمة لشعور ضعيف ومعتقدات تولاها الوهن، ولكن إذا اصطدم بإيمانٍ يماثله في قوته

[٢] روح الجماعات، ترجمة فتحي باشا زغلول.

أصبحت الحرب عَوانًا، وصار النصر مَنُوطًا بالأحوال الثانوية التي تكتنف الغالب منهما.

وإن بهذه العُدة الضئيلة في النظر، القوية في الأثر — العقيدة أو الغاية الكمالية — فَتَحَ رجل صحاري بلاد العرب قسمًا من الأرض الإغريقية الرومانية، وشادوا دولة من أضخم الدول التي ورد ذكرها في التاريخ كما تقدم، وبمثل هذه القوة الأدبية — أعني الغاية الكمالية وسلطانها على النفوس — وقفت جنود الكونفانسيون البواسل في وجه أوروبا بأجمعها.[٣]

إذا تم فقدان الغاية الكمالية تم فقدان الأمة، فتعود خليطًا من الناس كلٌّ يعمل على شاكلته، وترجع إلى ما كانت عليه في بداوتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية، فلا شعور ولا أمل، هنالك تنعدم أساطين المدنية وتُمسي هدفًا لحوادث الاتفاق، وتصير العامة سلطانة على الأمة وتبدو طلائع المتوحشين، وقد يلوح على المدنية أنها باقية في بهائها؛ لأن مُحَيَّاها لا يزال يضيء بما ألبسته الأجيال الطويلة من البهجة والرواء، ولكن الحقيقة أنها بناء أكله السوس وفقد دعائمه، وأشفى إلى السقوط مع أية عاصفة.[٤]

والخلاصة أن انبثاق الغاية الكمالية أو المقصد العالي أو العقيدة لعامة كان دائمًا طليعة لحضارة مقبلة.

فمن همجية إلى حضارة وراء معتقد كمالي، ومن حضارة إلى انزواء فموت مع اضمحلال هذا المعتقد، ذلك مدار حياة الأمم، ولا تنفع حيلة في معتقد رسخ في النفوس!

وليس لمفكري الشعب العربي من مشروع الآن أفضل وأسمى من جعل المبدأ العربي ديانة للعرب.

[٣] سر تطور الأمم، ترجمة فتحي باشا زغلول.

[٤] روح الجماعات.

الفصل الثالث

الثورات والثورة الفكرية

(١) تعريف الثورة

تطلق كلمة الثورة إطلاقًا عامًّا على كل الانقلابات الفجائية في المعتقدات والآراء والمذاهب، أو التي تظهر كذلك.

تنتهي الثورة برسوخ معتقد، ولكنها تبدأ غالبًا بتأثير محركات أدبية خالصة، كالامتعاض من الإرهاق بالضرائب، أو كره الدور الاستبدادي الشديد، أو بغض الحاكم لظلمه، وهلمَّ جرًّا.

ومهما كان أصل الثورة، فإنها لا تنتج شيئًا إلا بعد تسربها إلى أعماق الجماعات، فالجماهير إذن ليسوا مَوْحَى الثورة ومصدرها، بل حبل صلتها وركنها الركين. والثورات الفجائية — وهي السياسية على الغالب التي تبهر أعين المؤرخين — أقل الثورات قيمة، أما الثورات الكبرى الصميمة فهي التي تحدث في العادات والمبادئ والأفكار، وما كان تغيير اسم الحكومة أو طراز الإدارة أو القانون تغييرًا لحالة الشعب العقلية أبدًا، وليس قلب أوضاع الأمة بدليل على قلب روحها البتة.[١]

إن الثورات الحقيقية التي تؤثر في مصير الشعوب وحياة الأمم هي الحادثة بشكل هادئ بطيء قلما ينتبه إليه المؤرخون، وكلمة التطور أو النشوء Evolution كما ارتآه «لوبون» أصلح للإفصاح عنها من كلمة الثورة Révolution.

وللثورة أقسام ثلاثة: علمية، وسياسية، وفكرية.

---

[١] غوستاف لوبون، Psychologie des révolutions.

(٢) الثورة العلمية

إن الثورة العلمية أهمُّ الثلاثة فلسفيًّا؛ إذ هي تأتي غالبًا بنتائج لا تصدر عن الثورة السياسية، ولو لم تكن تستلفت الأنظار.

إذا تغير إدراك البشر للكون منذ عهد النهضة Rénaissance؛ فذلك لأن الاكتشافات الفلكية وتطبيق الطرق الاختبارية قلبته رأسًا على عقب، فبرهنت لنا على أن الحوادث ليست خاضعة لهوس الآلهة بل لنواميس أدبية.

من هذه الثورات قيام النظريات الداروينية التي زعزعت أسس «البيولوجيا» علم الحياة القديم، واكتشافات باستور التي جددت علم الطب في حياة صاحبها، وهلمَّ جرًّا.

وهذه الثورات العلمية التي تحدث في الآراء ويؤيدها الاختبار هي فكرية نوعًا ما، لا تؤثر عليها عواطفنا ومعتقداتنا، بل إنَّا نقبلها دون جدال، لا حيلة لنا في ردها، ونحن نراها أو نرى أثرها بأمِّ عيننا.[٢]

وعلى الجملة، فإن للثورات العلمية أكبر أثر بيِّن في حياة البشر، سل عنه الاكتشافات المستحدثة والاختراعات الجديدة.

(٣) الثورة السياسية

يمكن أن تصدر الثورات السياسية عن معتقدات ترسخ في النفس، أو تتأصل في القلب، ولكنَّ أسبابًا غير هذه كثيرة تساعد في وقوعها وتَأَجُّج نارها.

فالاستياء في الدرجة الأولى، ثم إنه حين يتعمم الاستياء يتألف حزب قوي لمقاومة الحكومة.

ومن الضروري أن يكون الاستياء قد تراكم أعوامًا طويلة؛ ليحمل الثمرة المطلوبة، ولتكون نتيجته أبلغ وأكثر وضوحًا، ولذلك ليست الثورة حادثًا ينتهي يتبعه آخر يبتدئ، بل هي — إذا كانت قوية حقيقية — حادث مستمر يسبق أوانه أحيانًا، بعد أن يكون سائرًا في نهج التطور النشوئي.

أما الثورات الحديثة، من البرازيلية والبرتغالية، إلى التركية والصينية، فحركات فجائية لم تؤدِّ إلى قلب حكوماتها إلا قلبًا وقتيًّا.

---

[٢] غوستاف لوبون، Psychologie des révolutions.

يغلب على الثورات الكبرى أن تبدأ من أعلى لا من أسفل، لكنه بعد أن يتملص الشعب من قيوده تصير مديونة بقوتها إلى جماهيره من العامة.

ولا تكفي الحركة الحربية وحدها لقلب الحكومة؛ إذ إن الثورة الحاصلة بهذه الصورة فقط لا يمكن أن تقدم لنا نتائج حسنة إلا إذا كانت مؤسسة على استياء عام، وآمال كبيرة، أو بكلمة واحدة على ثورة فكرية.

والاستياء إذا لم يكن عامًّا لا يكفي الثورة، ولا تكون هذه تامة إلا إذا تخلل طيات قلوب الجماهير، يمكن بسهولة دفع زمرة من الأشقياء أو ثلَّة من العساكر إلى النهب والتخريب والقتل، ولكن يلزم للنهوض بشعب كامل أو على الأقل بالقسم الأعظم من هذا الشعب عملٌ وجهد كبيران، وقواد ماهرون يداومون على المغالاة في تصوير الحالة السيئة، ويعملون لجعل التذمر من هذا الموقف أشدَّ فأشد، ويقنعون الناس بأن الحكومة هي السبب الوحيد لكل هذه الحوادث التعسة، ويؤكدون لهم أن العهد الذي يَعِدُونهم بتحقيقه عهد سعادة ورفاهية وبركة وهناء، عهدٌ ذهبي يحسدهم البشر عليه، ويسجله التاريخ بين دفَّتيه.[٣]

فمتى نمت هذه الأفكار، وسرت في النفوس سريان الكهرباء في الأجسام، وتعممت بواسطتَي الإقناع والعدوى، ومساعدة الصحف والكتب، والمدارس والجمعيات، نضجت الثورة وحُمَّ القضاء، وقُضي الأمر.

لا جرم أن الساعة هائلة، والمنظر فظيع، ولكنْ هي الثورات لم تسلم منها أمة، وهو الناموس الطبيعي يقضي بأنْ لا نظام إلا على أسس الفوضى، وهي الظروف تحتم على الشعب — في بعض الأحايين — أن يسير على الجثث والجماجم، إلى النهضة والعمران، وليس ثمَّة دساتير أخلاقية هنا؛ فللأمم حق الحياة، وجميع الوسائط التي تستعملها حق مشروعة.

(٤) الثورة الفكرية

الثورة الفكرية هي التي تحدث تدريجيًّا في روح الأمة، من مشاعرها وآرائها إلى عاداتها ومعتقداتها؛ لتوجد لها روحًا قومية جديدة، وبالنتيجة مشاعر وآراء وعادات ومعتقدات

[٣] غوستاف لوبون، Psychologie des révolutions.

جديدة، وهي أهم بالمغبات من سائر الثورات، تحدث انقلابات اجتماعية لا يعد شيئًا بالنسبة إليها ما تحدثه الثورة السياسية التي تكون أحيانًا نتيجة لها كما تقدم، وأعظم الثورات الفكرية في التاريخ قيمةً وتأثيرًا ما قام منها بشكل ديانة كالديانات المسيحية، والمحمدية، والبروتستانتية.

إن الثورة الفكرية تربط الشعب بوحدة أدبية تنمِّي قوته المادية، وقد ظهر هذا لما جاء محمد ﷺ فألَّف من قبائل الجزيرة شعبًا هائلًا شديد السطوة كبير السلطان.

وهي لا تكتفي بتوحيد الشعب، بل إنها تغير كذلك ما لا يقدر قانون ولا فلسفة على تغييره، ألا وهي مشاعر الأقوام التي تكون الثورة فيها، وحينئذ تقوم مدنية جديدة على أمتن الدعائم.

ألا وإن الثورات الفكرية مخ التاريخ ولبابه؛ إذ هي التي تمنع الشعوب من أن تبقى مبعثرة، كلٌّ من أفرادها يعمل على شاكلته، لا رابطة تجمعهم، ولا عروة تضمهم، فلا قوة إذن لهم، ولقد احتاج البشر إليها في كل العصور؛ لأن الأفكار والمعتقدات هي التي تدير الإنسان في جميع ما يأتيه من الأعمال، ولم تنجح فلسفة إلى الآن لتحل محلها أو لتقوم بوظيفتها حق القيام، وهذه الأفكار والمعتقدات بعيدة جدًّا عن الجمود والبقاء على حالة واحدة، ثابتة مع كرِّ الغداة ومَرِّ العَشِيِّ وتقدم المعارف، ونماء الحاجيات البشرية.

«من السهل إيجاد فكر وقتي في عقول الجماعات، لكن من الصعب هدم اعتقاد تمكَّن منها، أو تقرير معتقد ليتأصل في نفوسها، ولا سبيل إلى التغيير في الغالب إلا بالثورات العنيفة، بل إن الثورة لا تؤدي إلى ذلك إلا إذا اضمحلَّ قبلها أثر المعتقد في النفوس، فهي تصلح لاستئصال تلك البقية التي تكاد تكون في حكم المهمَل لولا أن سلطان العادة يمنع من الإقلاع عنها بالمرة، فالثورة التي تُقْبِلُ عبارة عن مُعتقَد يُدْبِر.» [٤]

المدنية تسرع في خطاها، والأفكار تتجدد على الدوام، وما كان شعب قط ليحفظ كيانه أو يعيش عيشة راضية إذا كان واقفًا في مكانه لا يتحول، ولا يجاري المدنية في سيرها، والأفكار في تجددها.

[٤] روح الجماعات.

(٥) المحافظة والتجدد

أصعب الثورات وأوعرها طريقًا هي المُوَجَّهة لا لبعض الأشخاص أو للحكومة عمومًا، بل للعوامل الخفية الكامنة، وهي التقاليد والعادات الموروثة، والأفكار القديمة المستحكمة في النفوس، فالأمم التي لا تجاري المدنية في سيرها السريع، ولا يهتدي المفكرون فيها أو قادتها إلى طريقة حسنة يدفعونها بواسطتها دفعًا لطيفًا موافقًا إلى ترك تراثها البالي رويدًا رويدًا، واعتناق آخر يوافق روح الزمان يكون مصيرها الخراب والموت الاجتماعي.

ولا يظن ظانٌّ أنَّا نقصد بترك الأمة تراثَها هَجْرَها إياه كل الهجر دفعةً واحدة؛ فإن هذا — إذا لم ننظر إلى ضرره من جهة — مستحيل كل الاستحالة، وليس الذين يقولون به، كرجال الثورة الفرنسية مثلًا، إلا مصابين بالهوس القريب من الجنون، بعيدين عن فهم الوراثة الروحية وحقائق تطور الشعوب التدريجي، وكما قال أحمد شعيب: إن علم الجماعة ينحو من جهة نحو نصرة المبادئ الجديدة؛ لما في المستقبل أو الحاضر من أشكال الحياة الاجتماعية التي تَفضُل الحياة الماضية، ويحض من جهة ثانية على الاحتفاظ بالقديم، وينصح للأمم برعاية ماضيها ومقوماتها وخصائصها، وأنْ لا تقبِل على التعديل والإصلاح إلا بالتدريج، ونحن إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر نجد أن ارتقاء الأمة وتقدمها في سبيل الحضارة منوط قبل كل شيء بتغير تلك الأمة، وهذا يكون باتصافها بأوصاف جديدة، وبالتالي قبولها التغير بالتدرج البطيء، وفي كل الأحوال يتوقف الارتقاء على أمرين اثنين:

الأول: وجود قابلية التبدل.

الثاني: التثبُّت والتأني.[٥]

يُفهم من هذا أن محافظة الأمم على التوازن بين ماضيها وبين ما تتطلب اعتناقه من الجديد أصلح لها من الطفرة، وهذه حقيقة يقرُّ بها جميع العلماء الاجتماعيين، فلا تجد من ينكرها، أما ما نراه في بعض الشعوب من مخالفتها والزيغان عنها فذلك لأنها بطبيعتها ثوَّارة على القديم عاشقة للجديد، أو لأن بعض الظروف المشئومة تضطرها إلى ذلك.

---

[٥] الدولة والجماعة، ترجمها السيد محب الدين الخطيب.

والمهتدون إلى مركز التوازن من الأمم هم الرومانيون قديمًا والإنجليز الآن.

ذكرنا الرومانيين؛ لأن الفتوحات أوجدت صلة دائمة بين روما والشعوب الأجنبية، فكان ذلك باعثًا لها على إدخال التعديل في أوضاعها ونظاماتها، بما يظهر لها من العوامل الجديدة، وأسعد أيام الرومانيين هي الأيام التي تمسكوا فيها بمركز التوازن بين ذينك الطرفين.

وأمة الإنجليز كذلك حذَت وحدها في هذه الأيام حذو الرومان في التمسك بمركز التوازن بين الاحتفاظ بالقديم والأخذ بالحديث.

تمسك الإنجليز دون غيرهم بأوضاعهم السياسية والاجتماعية التي مرت العصور عليها، وما زالوا يصلحونها بتُؤَدَة وانتظام وبلا تردد، وحرية بلاد الإنجليز ليست من عمل «كروموبل» ولا من آثار أنصار الجمهورية في عام ١٦٤٩، بل هي بنت التاريخ الإنجليزي، وهي العظمة والقوة التي يباهي الإنجليز بها أمم الغرب بأسرها نتيجة التوازن المعتدل بين التثبت وقابلية التحول.[٦]

أما الأمة العربية فلم تحتفظ بالتوازن إلا في أيام الراشدين، وإن كانت في ذلك العهد محافظة على القديم بعض المحافظة، وأيام الأمويين في الشام، وأول ملك هؤلاء في الأندلس، وأول خلافة العباسيين، وما عدا ذلك حتى يومنا هذا فقد اكتفوا بما هم عليه فاختلت الموازنة فصاروا إلى حالتهم الحاضرة.

[٦] الدولة والجماعة.

الفصل الرابع

الثورة الفكرية والجنسية العربية

١

نستنتج من كل ما تقدم في هذه الرسالة:

(١) أن الغايات الكمالية الخيالية هي المسيِّرة للأمم كما للأفراد.

(٢) أن الثورات الفكرية تربط الأمة بوحدة وثيقة العرى تجعلها كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا؛ إذ تكون نتيجتها تأسيس معتقد جديد في نفس هذه الأمة.

(٣) ينبغي التمسك في هذه الثورات الفكرية بتلابيب التوازن بين عادات الأمم ومشاعرها وأفكارها ونظاماتها القديمة، وبين ما تريد تناوله من المبادئ الجديدة والآراء الحديثة، وأن تسير في هذه السبيل بملءِ التؤدة والحيطة.

فالأمة العربية نائمة نومًا عميقًا منذ ستة قرون، فهي لذلك متخدرة الأعصاب، وإن أخذت تفتح عينيها، لكنها تفتحهما لتغمضهما بعد قليل.

من الضروري لها إذن ثورة فكرية بطيئة حذرة تخلع بواسطتها نِير أفكارها العتيقة البالية، وتصلح خلقها الفاسد، وتقوِّم اعوجاج شرائعها، ثورةٌ تكوِّن لها وجدانًا قوميًّا متين الدعائم.

النظام الذي تقوم عليه حياتها المنزلية والمدرسية والمدنية والسياسية فاسد، تربيتها ناقصة، وتعليمها مشوَّه، ونظاماتها ممسوخة، وفي أدمغة أبنائها مبادئ سقيمة آسنة، ينتهي تاريخها بعهد مضى من أمد بعيد، فقد ذهب أوانها، وحان وقت تغييرها، فكما أنه لا يحسن نقل الأمة دفعة واحدة من الظلمة الحالكة إلى نور الشمس الذي يبهر الأبصار بل يعميها، كذلك لا يوافق تركها في حندس ذلك الليل الأليل، تتخبط على غير هدًى.

إن الجامعات مولعة بالقديم كل الولع، كارهة للجديد أشد الكره، فهي ما برحت متشبثة بالأول تشبُّثَ المُشْرِف على الغرق بحبل النجاة، وهذا ربما كان سبب جرِّه إلى قعر البحر، وجمودها الفطري ليس كرهًا للجديد من حيث إنه جديد؛ بل لأن إقبالها على أمورٍ لا عهد لها بها يدفعها إلى التفكير العميق، وهذا ما لا تطيقه.

هذه الثورة التي ينبغي بثُّها في الأمة العربية يجب أن تتناول — كما تقدم — كل ما يتعلق بحياتنا الأسرية والعلمية والاجتماعية، وأن ترمي إلى وضع غاية كمالية، يغار كل فرد من أفرادها عليها كل الغيرة، ويتعصب لها جدَّ التعصب، وهذه الغاية الكمالية هي — كما قدمنا — إعادة مجد العرب، وتجديد حضارة العرب، وخلق كيان حقيقي للعرب!

إن المعتقدات الدينية أو الاجتماعية أو السياسية لا تحرز قوة إلا بعد أن يجدها الجميع ملخصة في غاية كمالية أو مقصد أعلى، وليس تكوين هذه الغاية — كما أسلفنا — عمل سنة أو سنتين، وإنما هو نتيجة حركة مستمرة وإجهاد دائم، سيما ونحن لا نرضى بالاتكال على الظروف الحسنة السعيدة؛ وخصوصًا لأنه تكوين معتقد جديد.

جاء محمد ﷺ من قبل، فشيَّد للعرب ديانة كانت سبب فوزهم — دون نظر إلى صحة تعاليمها أو خطئها، موافقتها للزمن الحاضر أو عدمه؛ لأن قوتها وسلطانها على النفوذ ليسا في ذلك — فحملوا على العالم القديم حملة شديدة، تمكنوا بعدها من إخضاع الفرس والرومان وغيرهم، وتأسيس حضارة من أكبر الحضارات، وأملئها لصفحات التاريخ، ولم يتسرب إليهم السقوط في الدرجة الأولى إلا لما أخذ الوهن يتسرب إلى غايتهم الكمالية.

وكأني بهم الآن وهم أفراد مشتتون، لكلٍّ وجهةٌ هو مولِّيها، وكعبة يحج إليها، لا يفهمون من ديانتهم إلا جزءًا يسيرًا كالصلاة والصوم، ولا يدركون ذلك المقصد السياسي العالي الذي قام لأجله النبي الكريم، والسر العظيم الذي بواسطته وحَّدهم بعد أن كانوا قبائل يُغِيرُ بعضهم على بعض، أقل عاصفة تذهب بريحهم كأنْ لم يسبق لهم وجود.

ليس السبب في نجاح الأمم قوتها المادية؛ من أساطيل ومدمرات ومدافع وقنابل، وإنما المهم هو ذلك المؤثر الأدبي: الغاية الكمالية.

ولذا قلنا بأن الثورة الفكرية في الأمة العربية يجب أن ترمي إلى تكوين غاية كمالية، أو ديانةٍ جديدة لها، هي الجنسية العربية.

٢

الجنسية العربية

تحوي بعض الممالك أممًا شتَّى، وعناصر مختلفة في اللغة والتقاليد والعادات والطبائع والعقائد، فكيف حصل ذلك؟

قال العلَّامة ماكس نوردو مجيبًا على هذا السؤال:

دخل شعب غازيًا بلاد شعب آخر، فلم يطرده منها بتاتًا، بل بقيت مئات من الشعب المغلوب بين الشعب الغالب، أو إن الشعب الغالب كان أقل عددًا من المغلوب، فلم يبق منه إلا فئة قليلة، هنالك يشتد التنازع بعد أن كان ساكنًا، فيضطر الشعب الغالب لأن يستجمع آخر قواه ليدفع عنه الشعب المقهور، أو أن يعدمه أدبيًّا بحرمانه من لغته بالقوة الوحشية، اللهم إلَّا إذا نهض الشعب المَغْزُوُّ فجأة مدافعًا عن نفسه فيطرد الغازين خارج بلاده، أو يضطرهم إلى نبذ جنسيتهم.[١]

ثم قال بعد أن أتى على تعليلات أخرى لا يهم ذكرها:

إن مسألة الجنسيات هي الفصل الخامس الأخير لقصص تاريخية محزنة بدأ بعضها من هجرة الشعوب، وأكثرها بعد ذلك بكثير، وقد طالت فترة ما بين الفصلين، لكنها لن تدوم، فالستار ارتفع، والكارثة على وشك الوقوع، إنها ستكون شديدة قاسية، وكذا تكون مقادير كل كائن حي؛ إذ الحياة جهاد لا رحمة فيه، وليست هذه مسألة حقوق، بل مسألة قوة في أعلى وأعظم معانيها، وما من أحد يضطر الكائن الحي للتنازل عن الأسباب الضرورية لحياته، ولا يمكن ذلك إلا بالقوة، والقوة تسبب الدفاع والممانعة، وهل يُطلَب من الأسد أن يُبرز صكًّا يُخَوِّله الحق في افتراس الحَمَل؟ الأسد يغتصب الحمل اضطرارًا، وهذا مبدأ حقه في افتراسه، لا جَرَمَ أن للحمل الحق بقتل الأسد إن قدر عليه! ... وحينما تكون الحياة أو ما يماثلها معرَّضة للخطر يتساوى الحق بالقوة.

---

[١] مقالة الجنسية، نُشرت ترجمتها في مجلة المقتبس في العدد الثاني من السنة السابعة.

وهذا ظاهر حتى إن الشرائع البشرية جميعها تبيح للفرد الدفاع عن نفسه؛ أي إنها تسمح له في بعض الأحوال أن يستعمل القوة في الدفاع عن حقه، أَوَلَيْسَتِ الحرب حالة من حالات الدفاع عن النفس بين الشعوب لا بين الأفراد؟

إذا رأى الشعب في بعض الأمور ما هو ضروري له مدَّ يده لامتلاكه، وحقه في هذا الشيء هو عين الحق الذي للأسد في افتراس الحمل، فإذا شاء شعب آخر منْعه فيجب عليه إذن أن يعارضه بالقوة بنفس الحق الذي له أيضًا، ولا وجه للمغلوب بالتشكِّي ما دام له الحق بإعادة الكَرَّة مرة أخرى، فإن قُهر نهائيًّا وأضاع الأمل بالقوة في المستقبل وجب عليه أن يُذْعِن للقضاء، قائلًا: «خُلقت حَمَلًا فيجب أن أعيش عيشة الحمل، حبذا لو كنت الآن أسدًا! ولكن من الحمق مشاكسة الفطرة؛ لأنها لم تخلقني أسدًا!»

وقال في مكان آخر:

لا بدَّ لأوروبا أن ترى مِرْجَل الجنسيات ينفجر انفجارًا هائلًا عندما يأتي دور تصفية الحساب، والفِرَق المتبعثرة في كل شعب إما أن ترجع إلى أصلها فتلتف حوله، وإما أن تستصرخه وتستنجده فتنتصر بمعونته على الشعوب التي تستبد بها، ومصير الشعوب الصغيرة التي اكتسحت بلادًا بالاشتراك مع غيرها إلى الزوال إن لم يكن لها من قومها عضد قويٌّ يساعدها على الثبات أمام جيرانها الأقوياء، هنالك لا تثبت إلا الأمم الكبرى، ومن الأمم الصغرى من تستطيع تأسيس دولة مستقلة بعد طرد أو محو سائر العناصر الأجنبية التي تعيش بينها.

وقد لا يمضي القرن العشرون قبل أن يُشاهَد ختام هذا المشهد التاريخي، بل سترى أوروبا منذ الآن إلى ذلك اليوم العصيب شرورًا كثيرة ودماء مهدورة ومظالم عديدة وقساوة بربرية، فستُمحى شعوب وتُسحَق أقوام بدون رحمة ولا شفقة، وتبدو أمام هذا التسفُّل البشري مظاهر شجاعة عالية! هنا شراذم أنذال يخضعون أدبيًّا بدون مقاومة، وهناك أبطال يشربون كأس الردى ممزوجة بالعز والشرف، وبعد كل ذلك تتمتع الأمم الباقية بحقوقها الوطنية لا يرون فيها غير أنفسهم.

> إنها لنظرات مرعبة تتراءى لنا، لكنها قلَّما تخيف من استعد لتحمُّل قسوة ناموس الحياة العام: الحياة جهاد، وقوة الحياة تكسب الحق فيها.

نعم، إنها لنظرات مرعبة، ولكنها قلَّما تخيف من استعد لتحمُّل ناموس الحياة العام: الحياة جهاد، وقوة الحياة تكسب الحق فيها.

فليستعد العرب إذن لتحمُّل قسوة ناموس الحياة: الحياة جهاد، وقوة الحياة تكسب الحق فيها!

إن المستقبل للشعوب القوية المتمسكة بقوميتها، فلتكن الجنسية العربية ديانة للعرب جديدة!

إن الجنسيات آلهة العصور الآتية، فلمَ لا نسعى منذ الآن لخلق إلهٍ للأمة العربية، هو الجنسية العربية، إله يضحِّي كلٌّ من عباده حياته في سبيل نصرته لَمَّا تتطاحن الجنسيات؟

إن جامعة الجنس وحدها الثابتة؛ إذ يمكن أن يرد الإنسان ما سواها، بَيْنَا هو غير واجدٍ سبيلًا إلى نكران دمه الذي يجول في عروقه، والتاريخ الذي خطَّه أجداده على جبهة الدهر، واللغة والحضارة اللتين وضع كل منهما حجرًا من أحجارها.

وما العاطفة التي يتحسس العربي بها نحو غيره من الأقوام الغريبة إلا أقلها دوامًا.

ألا لا عاطفة أسمى من الجنسية، ولا رابطة أوثق من رابطتها!

قال العالم الإسرائيلي:

> إن الذين لا تُعمي بصيرتهم الأغراض الشخصية يعترفون بأن تنبه الشعور الجنسي حادثة طبيعية تظهر ضرورة عند حد محدود من النشوء البشري لا يمكن إعاقتها أو منعها إلا إذا أمكن إعاقة مد البحر وجزره، أو منع حرارة الشمس من أن تصل إلينا إبَّان الصيف، فالذين يقولون بأن الأمم ستنبذ جنسياتها فلا تعود تذكرها ليسوا أكبر عقلًا من ذلك الغلام الذي قال لأمه وهي تضمه: متى أصبحت طفلًا صغيرًا مثلي، فأنا أيضًا أحملك.
>
> والذي يحدد الجنسية هو في الحقيقة اللغة، فبها وحدها يصبح الإنسان عضوًا في جسم الأمة، وهي وحدها تخوِّله الجنسية، فلنتمثل حق التمثيل مكانة اللغة للفرد، وحظها في تكوين وجوده وفكره وشعوره ومظهره الإنساني.
>
> باللغة يتكيف نظر الإنسان حسب نظر الشعب الذي هذَّبه ورقَّاه وأودع فيه وفي تركيبه أرق حركاته الفكرية وأرقَّ خصائص علمه وتصوراته، باللغة

يصبح الإنسان ابن الشعب ووارث مفكريه وشعرائه ومؤدبيه وقادته، باللغة يخفض المرء جناحه لأدبيات الشعب وتاريخه، بفضل ما يؤثران في جميع أفراد ذلك الشعب فيجعلانهم سواء في الشعور والعمل.

حقًّا، إن اللغة لهي الإنسان نفسه!

الفصل الخامس

واجب مفكِّري العرب

لا أنكر أن هذا المشروع جليل صعب المنال، ولكن همم الرجال لا تقصر دونه إذا كانت عالية، فعلى المفكرين أن يسيروا لإصلاح الأمة في المنهج الذي قدمناه بملء الحذر والتأني، وينبغي أن يكون الجديد الذي يأتونها به قريبًا من القديم قرابة ضعيفة، أو أن يظهر كَتَتِمَّةْ له ملازمة، فإن شكل الثوب الذي يصير زيًّا متبعًا يكون كذلك إذا لم يمس النقط الأساسية لزي الثوب القديم، يقولون إنَّ الجماعات بلهاء قاصرة الإدراك، كلَّا، لَعَمْرِي إنها ليست كذلك في ذاتها، ولكن بالنسبة للأفراد المبرزين فقط، أو الذين هم أذكى من جميع بني عصرهم، وهي تمثل درجة الارتقاء العقلي الذي كان آخر ما توصل إليه عظماء الجيل الماضي وما قبله، إن العظماء اليوم هم في الحقيقة أكثر منها تقدمًا وأوسع فكرًا، غير أن الجماعة ستكون غدًا في نفس درجتهم العالية، وإذا وقف سواد الأمة الجاهل في وجههم وعارضهم أعنف المعارضة وجب عليهم أن يثبتوا ويصبروا، ولا بأس في أنْ لم يروا بأعينهم ثمرة سعيهم وكدهم الشديدَيْن، فليجوعوا؛ ليأكل أبناؤهم من بعد، فإنما وُجد الآباء ليموتوا في سبيل الأبناء!

ولتجِدُنَّ يقينًا — وَايْم الحق — من يقدركم حق قدركم، وينظر إلى مآثركم نظرة الامتنان والتَّجِلَّة.

الأمة الآن طفل صغير، لا يعرف ماهية الحياة، ولا يدرك ظلمة مستقبله، عليكم أن تربوه وترشدوه لما فيه الخير واليُمْن، ولو كان هذا الطفل شرسًا ذا أنياب حادَّة، وشريرًا في بعض الأحايين يسيء إلى مصلحيه، تعهدوه ولو كان يكرهكم وآراءَكم.

فعلى الأستاذ في مدرسته، والكاتب والشاعر والخطيب من أبناء العرب، الأول إذا وقف بين تلامذته يلقي عليهم درسه، والثاني إذا استدرَّ قلمه لتسويد صحيفة في أحد المواضيع، والثالث إذا استوحى آلهته «موز»، والرابع إذا اعتلى المنبر في حفلٍ ما، أن يرمي

فيما يلقيه ويكتبه وينظمه ويخطب فيه إلى تلك الغاية العليا والمقصد الأسمى؛ جعل العربية ديانةً للعرب!

فإن أمثال هذا العصر الأدبي كانت ولم تزل أكبر العوامل في نهضة الشعوب، نعم، إنها لا تخلق السفن ولا المدافع، ولكنها كما قال الأميرال «توغو» روح هذه السفن والمدافع، والمعتقدات الشديدة مخربة أحيانًا، خالقة على الغالب، غير أنها لا تقاوَم أبدًا؛ فهي أقوى قوى التاريخ والدعائم الحقيقية للحضارات، ولا يمكن أن تُعمَر الشعوب طويلًا بعد موت آلهتها.

إن الكتب والصحف تؤثر في تولد الآراء وانتشارها تأثيرًا كبيرًا، ولو كان في الحقيقة أقل من تأثير الخطب، والكتب تؤثر أقل من الجرائد، غير أن بعضها كان السبب في موت آلاف البشر، وتأسيس أعظم الممالك؛ كمؤلفات «روسو» الإنجيل الحقيقي لزعماء الثورة الفرنسية، وكتاب: La Case-de L'oncle Tom الذي ساعد أكبر المساعدة حرب الانفصال الدموية في أمريكا، أما الآن فإن تأثير الصحف أعظم جدًّا من تأثير الكتب، وليس من حكومة تجهل هذا الأمر، ولذا يعمد كل من الساسة إلى امتلاك صحيفة رائجة يبشر فيها بأفكاره، وتضرب على وتيرته.[١]

من ذلك تأثير حوادث التاريخ الكبرى، فإنها توقظ الروح القومية، فتجعلها تتلهف على تلك الأيام السالفة، أيام الرفاه والمنعة والسلطان، وتحفزها إلى تجديد ذلك العهد، وترديد تلك الذكرى.

ومن هذا النوع تأثير الروايات التمثيلية التاريخية في تشكُّل هذه الروح السامية، بين دفات التاريخ وقائع الماضي، وسِيَر رجاله وأعمال أبطاله واضحةٌ جليَّةٌ، يقرؤها القارئ فيشعر في ذاته نفسًا تتَّقد غيرةً وحمية، وعلى المسارح العمومية أشخاص ذلك الماضي يروحون ويغدون، ويقولون ويعملون، يتأمل فيهم الفتى ويصغي إليهم، فترتسم في مخيلته صورهم الجليلة، وكلماتهم الحكيمة الصادقة، فتهيب به إلى الأخذ بأسباب النهضة، وطرح الخنوع جانبًا قصيًّا، إن التاريخ تمثيلٌ صامتٌ، ولكن التمثل هو التاريخ الحي بأعلى مظاهره. والحكومات إذا أرادت أن تُنسي قومًا شخصيته، وتجعله لا يفكر في الرفعة، ولا يأبه للمجد والذِّكْر الحسن والعمل الصالح، أنسته تاريخ أجداده، فتمَّ لها

[١] غوستاف لوبون، Opinions Et Croyances.

ما أرادت من استعباده وتسخيره، كما تُسخَّر الحيوانات العجم في حمل الأثقال ورمي الأقذار.

كذلك من مقومات هذه الروح إقامة الحفلات والأعياد للمشاهير؛ إجلالًا للبطولة، واحتفاءً بالعظمة، ونظم الأناشيد الوطنية التي ما سمعها ذو شعور حساس إلا أقامته الحماسة وأقعدته، وأسكرته خمرتها المنشطة.

الفكر القومي درجة من درجات الرقي البشري، لا مهرب منه عند حدٍّ محدود. والشعوب التي بلغت شأوًا عاليًا من العلم والمدنية تُقدِّس قوميتها، وتتعصب لها أشد التعصب.

ننظر في ذلك إلى أقرب الأقوام إلينا وهم الأتراك، شبَّت في هذه الآونة نار حرب قَلَمِية بين كاتبين من كبار الكتَّاب: هما سليمان نظيف، وأحمد أغايف، نشر الأول مقالاته في «اجتهاد»، والثاني في «تورك يوردي»، وهاتان المجلتان تدافعان عن مبدئين، بل تَنْشُدان ضالتين متغايرتين، كتب أغايف في رسائل عديدة، وهو يرد انتقادات خصمه، القضية التي يدافع عنها ليؤيدها، قال ما خلاصته:

«يتألف تاريخ الشعب من حوادث ماضية منذ أصله ومنبعه حتى هذا اليوم، فليس الحاضر إلا تتمَّة الماضي، ولا يمكنك بالبداهة إهمال طور من أطوار التاريخ إلا ويرسخ في دماغك فكر عنه مغلوط، أو تسعى نحو مقصدٍ غير قابل التحقيق، لتعمل عملًا مثمرًا، ينبغي أن تعرف نفسك، ولا يقدر شعب على أن يكوِّن وجدانه إلا إذا عرف تاريخه وخصائص جنسه؛ أي مميزاته القومية، فالتاريخ العثماني لا يبتدئ حين رسخ قدم قبيلة «قايي خان» في آسيا الصغرى، والسلطان عثمان لم يصنع شيئًا سوى أنه نظَّم مملكة السلجوقيين، وخلَّد دوام عائلة هي في الأصل تركية، حكمت ولايات الأناضول الغربية ما ينيف عن قرنين، من أين أتى هؤلاء؟

– من تركستان، كل الذين يصعد أصلهم الجنسي إلى المنبع الطوراني يشكلون إذن الشعب التركي، واحدًا لا يتجزَّأ، بالرغم عن أشكاله الحالية المختلفة، وجنكيز خان وتيمورلنك يجب اعتبارهما ملكين تركيين عظيمين، بالرغم عن الفظائع التي ارتكباها ورميا بها إخوانهما في الجنسية والدين، وبصفتهما كذلك ينبغي أن نحفظ لهما مكانًا أو بعض مكان في روح الأمة التركية.»

أما سليمان نظيف فإنه لا يريد هذه النظرية بل يحاربها بشدة عنيفة، يقول: إن الحياة التي قضاها أسلافنا في تركستان ليست في نظرنا سوى حلم مظلم بعيد، ولم ندَّخر شيئًا من تلك الحياة الوحشية التي هربنا منها لنرسخ قدمنا في هذه البلاد، هنا تكوَّنَّا بمقتضى الوسائل المحلية، تمثَّلْنا بالأجانب، وعقَدْنا مدة عصور جمَّة تزاوجات مركبة Mariages Mixtes في كل أنحاء المملكة، واعتنق الإسلام كثير من المسيحيين، خصوصًا في دور الفتح، وتأثير الإقليم والبيئة أو الضرورات التي ولَّدها هذا التأثير غيرت تمامًا سِيمَاءَ التركي وروحه؛ إذ أصبح عثمانيًّا بتأثير شروط حياته الجديدة، فالعثماني غير مديون لبلاده الأصلية؛ لأنه لم يصطحب شيئًا منها، والنفر من الأتراك أقام في ولاية «بروسة» منذ ستمائة عام بإمرة أرطغرل، كان عاريًا عن سائر العناصر الضرورية للحياة الحضرية، لا يشبه مجموعهم إلا بالحويصلة الجنينية، تنمو وتتوسع وتصير لها شخصية ووجود اجتماعي؛ إذا كانت الشروط المحيطة بها صالحة موافقة، حصل هذا الحادث هنا، وما كان ليتحقق لو بقيت قبيلة أرطغرل في تركستان، ولم تقطن آسيا الصغرى، طوران بلاد قاحلة لا تَنبت فيها الحضارة، فلماذا يشْخَص قلب التركي وعقله إليها؟ ولمَ تكون غايته الكمالية تمجيد تيمورلنك، هادم المملكة العثمانية الأولى، وهل يمكن للراحل إلى طوران أن يفيض علينا بما يزيد علمنا وفننا، ولغتنا وآدابنا؟

ويقاوم سليمان نظيف في كتاباته فكرة التحريف الذي تود الناشئة التركية إدخاله في اللغة؛ أي تحاشي استعمال الكلمات العربية والفارسية، واستبدالها بكلمات مجهولة مأخوذة عن الأصول التركية والتترية.

مَن منهما المحق المصيب؟ يصعب الحكم في ذلك،[٢] ولكن المهم ليس هنالك.

يرى القارئ من ثنايا هذا البحث الجليل وبنوعٍ خاص القسم الأول منه، أن النابتة التركية قد أحلَّت القومية في الواقع مركزًا ساميًا مقدسًا، فوق كل شيء، وأن قادة الأفكار في الأمة فرغت من هذا الموضوع، فأخذت تفكر فيما يحدد هذه القومية، ومتى يبدأ تاريخها، وكيف تتعزز اللغة، أسمى مظاهر القوميات.

ونحن ماذا ترانا صانعين؟

---

[٢] Jeune Turc – No 29, chewal 1331.

الخلاصة أن أعظم عمل يقوم به المفكرون في الأمة العربية، أو بالأحرى أول واجب عليهم، هو أن يُحدثوا فيها ثورة فكرية تدريجية تنتهي بتشكل ديانة جديدة، لا قيام لأبناء الضاد إلا بها، هي الجنسية العربية؛ ليصيروا مستعدين لتحمل قسوة ناموس الحياة العام.

الحياة جهاد، وقوة الحياة تكسب الحق فيها.

هنداوي